لويس الثانى عشر والفلاح

كَانَ لِويسُ الثَّانِى عَشَرَ مَلِكُ فَرَنْسَا يُلَقَّبُ بِحَقٍّ بِأَبِى الشَّعْبِ، وَكَانَ يُحِبُّهُ وَيُجِلُّهُ جَمِيعُ أَفْرَادِ رَعِيَّتِهِ لِعَطْفِهِ وَطِيبَةِ قَلْبِهِ وَغَيْرَتِهِ عَلَى سَعَادَةِ رَعِيَّتِهِ وَهَنَائِهَا. وَحَدَثَ أَنْ سَمِعَ ذَاتَ مَرَّةٍ أَنَّ نَبِيلاً مِنَ الْأَشْرَافِ أَسَاءَ إِلَى احَدِ الْفَلَّاحِينَ إِسَاءَةً شَدِيدَةً وَعَامَلَهُ مُعَامَلَةً وَحْشِيَّةً فَغَضِبَ لِذَلِكَ الْمَلِكُ غَضَباً شَدِيداً، وَصَمَّمَ أَنْ يُعْطِىَ ذٰلِكَ الشَّرِيفَ دَرْساً قَاسِياً يُعَلِّمُهُ كَيْفَ يَعْطِفُ عَلَى مَنْ هُمْ دونَهُ فِي الثَّرْوَةِ وَالْجَاهِ وَاسَرَّ ذٰلِكَ فِي نَفْسِهِ عِدَّةَ أَسَابِيعَ كَانَ يُفَكِّرُ فِي خِلَالِهَا فِي الطَّرِيقَةِ الْمُنَاسِبَةِ لِجَعْلِ انْتِقَامِهِ مِنَ الشَّرِيفِ وَدَرْسِهِ لَهُ نَاجِعاً مُؤَثِّراً. وَذَاتَ يَوْمٍ دَعَا الشَّرِيفَ إِلَى قَصْرِهِ وَحَجَزَهُ لِتَنَاوُلِ الْعَشَاءِ وَلٰكِنَّهُ تَرَكَهُ وَحْدَهُ عَلَى الْمَائِدَةِ، وَلَمْ يَأْكُلْ مَعَهُ. وَأَمَرَ أَنْ تُقَدَّمَ لَهُ أَفْخَرُ الْأَلْوَانِ وَأَشْهَى الْأَطْعِمَةِ الْمَلَكِيَّةِ مَا عَدَا شَيْئاً وَاحِداً، وَهُوَ الْخُبْزُ. وَقَدْ دَهِشَ الشَّرِيفُ لِهٰذَا الْأَمْرِ الْغَرِيبِ وَلٰكِنَّهُ لَمْ يَجْرُؤْ عَلَى طَلَبِ الْخُبْزِ لِحَقَارَتِهِ بِالنِّسْبَةِ لِأَنْوَاعِ الطَّعَامِ النَّادِرَةِ الَّتِي قُدِّمَتْ لَهُ. وَكُلَّمَا قُدِّمَ لَهُ لَوْنٌ بَعْدَ لَوْنٍ أَحَسَّ بِالْحَاجَةِ لِلْخُبْزِ وَشَعَرَ بِالضِّيقِ لِغِيَابِ هٰذَا الصِّنْفِ الَّذِى لَا غِنَى عَنْهُ. وَمَا وَصَلَ إِلَى آخِرِ الطَّعَامِ حَتَّى كَانَ غَيْظُهُ قَدْ بَلَغَ أَشَدَّهُ. وَهُنَا ظَهَرَ الْمَلِكُ، وَخَاطَبَهُ قَائِلاً: «هَلْ أَعْجَبَكَ الطَّعَامُ يَا عَزِيزِى النَّبِيلَ؟» فَرَدَّ الشَّرِيفُ قَائِلاً: «مَوْلَاىَ لَقَدْ كَانَتْ وَلِيمَةً فَاخِرَةً حَقّاً لَا تَلِيقُ إِلَّا لِمَقَامِكُمُ الْعَالِى. وَمَعَ ذٰلِكَ لَا أَقْدِرُ أَنْ أُخْفِىَ عَلَى جَلَالَتِكُمْ أَنِّى لَمْ أَتَمَتَّعْ بِهَا وَلَمْ أَشْعُرْ أَنِّى اسْتَفَدْتُ مِنَ الطَّعَامِ، لِأَنَّ فَائِدَةَ الْأَكْلِ الْأُولَى هِىَ الْمُسَاعَدَةُ عَلَى الْحَيَاةِ؛ وَالْخُبْزُ يَا مَوْلَاىَ هُوَ عِمَادُ الْحَيَاةِ، وَقَدْ خَلَتِ الْمَائِدَةُ يَا مَوْلَاىَ مِنَ الْخُبْزِ مِنَ الْبِدَايَةِ إِلَى النِّهَايَةِ.»

وَهُنَا قَالَ الْمَلِكُ بِصَوْتٍ قَاسِى النَّبَرَاتِ: «اذْهَبْ مِنْ أَمَامِى، وَيَجِبُ أَنْ تَعْلَمَ الْآنَ الدَّرْسَ الَّذِى قَصَدْتُ أَنْ أُعَلِّمَهُ لَكَ! فَإِذَا كُنْتَ تُحِسُّ بِالْحَاجَةِ الْمَاسَّةِ لِلْخُبْزِ لِأَنَّهُ عِمَادُ حَيَاتِكَ، فَيَجِبُ عَلَى الْأَقَلِّ أَنْ تُحْسِنَ مُعَامَلَةَ أُولٰئِكَ الْعَامَّةِ مِنَ النَّاسِ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْحُقُولِ فَيُخْرِجُونَ بِكَدِّهِمْ وَعَرَقِ جَبِينِهِمْ ذٰلِكَ الْخُبْزَ الَّذِى آلَمَكَ غِيَابُهُ عَنِ الْمَائِدَةِ!!»